الموضوع: المحاضرة رقم 05/ما الميتافيزيقا؟

الأستاذة تونسي س

4- بناء التصورات وموقف كانط منها

إن موقف **كانط** هو موقف واضح ليس فيه تشكك إذ إنه يرى أن **الفهم** هو الذي يشكل ويبني **التصورات**: وإذ يعني كانط بالتشكيل و البناء، نفس ما تعنيه تلك الكلمات مثل البرهان و التعريف. ان فعل البرهنة هو نفسه فعل التشكيل ويقترن كل من التعريف و البرهان بعلم الرياضة ،بنوعيه المتصل و المنفصل حيث إن القيام بالتعريف يحتاج إلى القيام بالبرهان ولما كان القيام بالبرهان يعود إلى التعريف كمنطلق أساسي عند كل تفكير سليم، فانه لا ينفي الأساس الطبيعي الذي و من خلاله يتشكل التفكير السليم.

فإن كانط يرى في الرياضة و الفيزيقا علمين لايرتدان الى المنطق، كأصل لهما ولكنه يفصلهما عن المنطق وهو الموقف الذي يتناقض مع الموقف التقليدي ،الذي تميز به **ليبنيز** حيث أن و بحسب كانط ،عند مستوى البرهان، فإنـ بناء القضايا يكون دائما خاضعا **للحدوس** حتى يتسنى وضع القضايا وضعا **موضوعيا**، ولما كان الأساس الموضوعي، أي ذلك الذي لا يشكله و لا يبنيه الفهم هو بذاته ذلك **المعطى** الخارجي: مثل المكان، فإنه لا يعد تصورا أو مفهوما ناتجا محضا عن ملكه الفهم ولكنه معطى نجده قائما في الحاسية ومستقلا عنا تماما ولكنه يشكل الشرط الضروري الذي من خلاله يمكن من التفكير تفكيرا موضوعيا لأن كل انطباعاتنا تحصل في المكان كحيز موضوعي للحاسية لما تنقله الحواس من إحساسات مختلفة .فالإحساسات تشكل الأساس الوحيد للمعرفة الحدسية التي تتكون منها. فلا يمكن معرفة إلا الموضوع المحسوس: أي **الفينومينات**.

اننا نفهم الموضوعات بحسب الكيفية التي هي معطاة لنا في الحدوس الحسية وفقا لما تقرره الصور **القبلية** للحاسية :أي **المكان** و **الزمان**. ولعل هذا ما جعل **م. غوتفريد**، ينعت الموقف الكانطي ،بالمتجاوز للموقف التقليدي الذي يصوغ المكان على أنه مستو مثلما حملته النظرية الإقليديسية. ذلك ان كانط يعتبر

التصورات فارغة و جوفاء ولا معنى لها ،ما لم تقدم على التجربة لتعطيها معناها. ولذلك فهو يعتبر علم الرياضيات هو العلم الذي يسمح بالبحث في **الماهيات** الخالصة؛لأنه العلم الذي يحاكي الحدس، أي يحاكي الصور الخالصة القبلية للحاسة (للحدوس)، ولا يحاكي الموجودات من حيث هي موجودة أم لا. بينما في حالة محاكاة الرياضيات للموجودات فإنه الأمر عند ذلك الحد يصبح فيزيقيا محضا، وهو الأمر الذي يتناقض مع الموقف **الديكارتي**، الذي يرى بأن الإمتداد يرتدد الى الرياضية وليس الى الطبيعة لأن عند محاكاة الرياضية للموجودات فإنه ينتج عنه انتفاء الموجود المحسوس ولايبقى إلا الماهيات. ولعل إنتقاد كانط **للبرانكيبيا** و التى من خلالها يورد أن المبادئ التي تخضع لها الفيزيقا ماهي الا مبادئ صورية بحتة و رياضية ، وهو الأمر غيرالصحيح لأن تلك المبادئ هي فيزيقية محضة، في نظر كانط.

ولكن هذا لا يشير إلى أن كانط يطرح عنه الرياضيات، بالعكس، فإنه يرى أن قيمتها الثمينة تكمن في أنها تشكل العالم الوحيد الذي يسمح لنا بتشكيل الموضوعات المعرفية. حيث يعتبر كانط أن الرياضة تحظى بطبيعة حدسية، ويعني بالطبيعة الحدسية: أن الموضوعات الرياضة ، و هي الموضوعات المؤلفة أو المشكلة قبليا ، وفقا لما تسمح به قواعد الرياضيات ، في هذا المجال الصوراني البحت، أن تكون هي بمثابة الماهيات الخالصة.

<< الحدوس الخالصة لا يمكنها أن تضفي معرفة فوق ما تقتضيه الرياضيات ، إنما هي بمثابة الحدود التي تضبط وتقرر الموجودات العقلية والمتصورة دونماالوقوع في تناقضات ومفارقات مع الموجودات الرياضية، والعوالم الممكنة.إن ما يعنيه التفكير في المجال الرياضي هو نفسه ما تعنيه كلمات ،مثل التشكيل، البناء، الفعل والإجراء.>>

ولعل هذا ما جعل كانط لا يحمل على عاتق الرياضيات بأن تكون المثال الأكمل لتأسيس الميتافيزيقا. فهو لا يقيس إمكانية احدهما على ضرورة الآخر وذلك لسبب منطقي والذي يكمن في الإختلاف الشاسع بين طبيعة كل علم منهما، إذ إن النموذج المعرفي لكل منهما متباعد تماما، فالميتافيزيقا هي نموذج معرفي يقوم على التصورات، وليس علم بناء التصورات، والميتافيزيقا ليست إجراءات بحيث يمكنها ذلك من وضع تصوراتها من خلال حدوس ما.

<< كل ما يدلي به الفهم كمعرفة ناتجة عنه (الفكر) دونما الرجوع فيها إلى الاستنجاد بالتجربة الحسية لا يعد معرفة ذات قيمة بالنسبة للذات مادامت لم تتموضع في التجربة الفعلية >>

بهذه العبارة التي وردت في **التحليل الترانسندنتالي**. يحدد كانط المعنى الذي يصف به المعرفة الموضوعية والتي بحسبه هو ،هي تلك التي تجعل من الفكرة المجردة (التصورات) مجموعة إحساسات و بصيغة أخرى، فالقصد هنا هو القدرة على إحضار موضوع يكون مطابقا لما يوجد في الحدس. وذلك بحيث يكون معنى المعرفة ليس التجريد المثالي المفارق للذات ،مثلما هو الحال في نظريات المعرفية المثالية (**أفلاطون**) ولكن مع كانط تضحى المعرفة ذلك الفعل الذي يكمن في وضع الحدوس و(التصورات) في تطابق وتماثل للموضوعات الخارجية.

التصور الكانطي، فيما يتعلق بالمعنى الذي تفيده كلمة المعرفة ،ينحصر وينقطع عند كل تجربة. ذلك أن للتجربة بعدان إثنان أحدهما يكمن في المعنى السكوني لها والذي يمثله (العقل) كمجرد متلق غير فاعل، والآخر منهما يفترض جملة الإحساسات التي يتمثلها (الفهم).

التجربة إذن هي التي تثبت حقيقة المعرفة، إذ من خلالها يتوضح (للذات) أن هناك معطى واقعيا، وهو خارج عنها ومستقل عنهاتماما، يخضعها و يقيدها بقوانينه الخاصة به، كواقع ضروري . ولذلك يرى كانط، انه لا تقوم أي موضوعية كصفة عقلانية للمعرفة عموما، إلا إذا قابلها موضوعا خارجا ومستقلا عن الذات: فيركز بذلك ، كانط حول ذلك المعنى الثاني للتجربة المعرفية؛ بحيث إن الفعل المعرفي هو تلك التجربة وفقا للمنظور الخاص بكانط ، حيث وانه يجعل من المعرفة ذلك الفعل الذي يتوقف على ملكة الفهم و التي يوفد إليها وظيفة تشكيل وبناء الإحساسات، حتى يصبح للفهم وظيفته الخاصة و يتمكن من الفعل المعرفي .

حيث إنه بهذا الموقف يتوضح لنا بأن الميتافيزيقا ليست تندرج تحت صنف المعرفة، لأنها عاجزة،أمام امكانية اخضاعها للحاسية و استنادا الى ما أورده عن تحليله لمفهوم التجربة المعرفية، وعن تشكيلها وبناءها لتصوراتها في جملة من الإحساسات، و لما كانت الموضوعات الميتافيزيقية(المتافيزيقا) لا تنقلها الإحساسات فان كانط لا يعتبرها مماثلة للنموذج المعرفي الموضوعي .

وإنما الحقيقة بالنسبة للنموذج المعرفي الميتافيزيقي انه الصنف الذي يتأسس و يبنى على تصورات جاهزة مسبقا.

هذا هو التمييز الذي تحمله فلسفة كانط النقدية، حيث وإنه يخلص إلى وضع تمييز بين ثنائية التجربة و الفكرة الا أنه لم يرسم خطا فاصلا إبيستيمولوجيا واضحا بينهما ، حيث انه لجأ إلى الربط بينهما و ذلك عند معالجته للرياضيات، فإنه اضطر إلى الإقرار بأنها تمثل: **التركيبي –القبلي**، حتى لا يناقض منطلقاته الفلسفية التي يركز من خلالها على البعد الحسي للرياضيات،و كطبيعة حدسية فانها و من خلالها توضع الأحكام وضعا ، و كما يمكن إنشاء من خلالها الموضوعات الرياضية انشاءا ، وفقا اللإجراءات المعرفية ذاتها يتم إنشاء العوالم الممكنة. فهي إذن كعلم صوري لا ينفصل عن الحاسية، ولذلك فإن شأن المتافيزيقا لا يكون مرتبطا ضرورة- كما جري التقليدعلى اثره فلسفيا- بأخذ شرعية قيامها من خلال تشبثها بالرياضيات كحجة لها . و هذه هي الحجة التي أبطلها كانط عندما أقام فلسفته النقدية على الثنائية الفلسفية.